

أضواء البيان

@ 238 @ الذُّشُورُ { . الذلول فعول بمعنى مفعول ، وهو مبالغة في الذل . .
تقول : دابة ذلول بينة الذل ، وقيل في معنى تذليل الأرض عدة أقوال لا تنافي بينها ،
ومجموعها دائر على تمكين الانتفاع منها عن تسهيل الاستقرار عليها وتثبيتها بالجمال ،
كقوله تعالى : { وَالْجِبَالِ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَّكُمْ وَلَآ زَعَامَ لَكُمْ } . .
ومن إمكان الزرع فيها كقوله : { فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا }
إلى قوله أيضاً { مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلَآ زَعَامَ لَكُمْ } ، وقد جمع أكثرها في قوله :
تعالى : { أَلَمْ نَجْعَلِ الْاَرْضَ رُضًا كَفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا وَجَعَلْنَا
فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَّآءً فُرَاتًا } . .
وكنت أسمع الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه يقول في هذه الآية : إنها من تسخير الله
تعالى للأرض أن جعلها كفاتاً للإنسان في حياته بتسهيل معيشتة منها وحياته على طهرها ،
فإذا مات كانت له أيضاً كفاتاً بدفنه فيها . .
ويقول : لو شاء الله لجعلها حديداً ونحاساً فلا يستطيع الإنسان أن يحرق فيها ولا يحفر ولا
يبني ، وإذا مات لا يجد مدفناً فيها . .
ومما يشير إلى هذه المعاني كلها قوله تعالى : { فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا
وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ } لترتبه على ما قبله بالفاء ، أي بسبب تذليلها بتيسير المشي
في أرجائها ، وطلب الرزق في أنحائها بالتسبب فيها من زراعة وصناعة وتجارة إلخ . .
والأمر في قوله تعالى : { فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ }
للإباحة . ولكن التقديم لهذا الأمر بقوله تعالى : { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْاَرْضَ
رُضًا ذَلُولًا } فيه امتنان من الله تعالى على خلقه مما يشعر أن هذا الأمر مع الإباحة
توجيهاً وحثاً للأمة على السعي والعمل والجد ، والمشي في مناكب الأرض من كل جانب
لتسخيرها وتذليلها ، مما يجعل الأمة أحق بها من غيرها . .
كما قال تعالى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّاهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّآءًا فِي الْاَرْضِ رُضًا
وَالْفُلُوكَ تَجَرَّى فِي الْبِحَارِ بِأَمْرِهِ } .